(١٧)

ذو القرنين

و

ذو قرنيها

في الرقاب وتحت السحاب

حديث الجمعة

١٣ ذو القعدة ١٣٨٠ هـ - ٢٨ أبريل ١٩٦١ م

يا سامق يا كل سامق (النظرة الأولى لك والثانية عليك)[١].

احرص على ما هو لك، وتهيأ لما هو عليك. إن لك أن تطلب الله لتعرفه، وعليك أن تمثل الله وتعرفه. لا تفرط فيما هو لك، فإن أحسنت فيما هو لك أمنت من العيوب فيما هو عليك. هذا ما نصح به عبد الله ورسوله وسيد الناس مسلما طلبه فوجده، أسلم له وآمن به، عرفه فعرف ربه، وآمنه فأمن نفسه. لم يتثاقل إلى الأرض في الطريق التي سلك، ولم يبخل عن البذل بما من الله ورسوله ملك حتى وفى فمن الله مَلك، ولم يتوقف في طلب العلم عن المزيد حتى لهو باب مدينته - أو مدينته من جديد -.

رفع طبقا فوق طبق وهو بين الناس، ومشى بقدميه على الرؤوس لم ينظر ما تحته، ولكن نظر رأسه وتحسسها تحت أقدام الحقائق، فتصاعد طبقا فوق طبق، لم يرَ أحدا تحت قدميه لأنه لم ينظر بعد عند نعليه. ولكنه رأى أقداما فوق رأسه يطيب لها أن تأخذه إليها، لا ينقطع له لعوالمها اجتياز ولا ينقطع له بها إحساس، ولا غرابة فقد كانت أبوة ذاته بفطرتها علما على معناه في طلب الله، فكان متخلقا بفطرته على طلب مولاه، فكان جديرا أن يكون أبو جلدته أبو طالب علما على علي في الطلب والمطالب. ذلك هو المسلم نبت في دين الله، وبعث في بعث رسالة الله، وأسلم لرسول الله، فكان مسلما لله، وكلمة وشجرة طيبة لله، وابنا لحقيقة رسول الله، وآدما لأبناء محمد الله وعبدا لله.

عرف رسول الله عليه مجهولا، وعرف ربه في الكل معلوما فعرف نفسه، عرف نفسه في الله عليا سامقا قديما يطلب الله، وعنوانا لرجل في طلب الله. وعرف في رسول الله مولاه كما عرف فيه إمامه، فترسم خطاه أمامه، فتبعه في متابعته بقرآنه ثم تابعه في صوره وعنوانه فما فصل بينهما غبار ولا فرقتهما دار.. فلم ينقطع له في الله مسير، ولم ينتهِ له في الله مسار.

أخرجه الله في رسالة الإسلام عنوان المسلم للمسلمين، وعنوان المؤمن للمؤمنين، وعنوان العارف للعارفين، وعنوان المبارك للمباركين، وعنوان القدس للمقدَّسين، وعنوان وجه الله للعارفين، وعلم الشهادة للشهداء لسيد المرسلين، باب مدينته للعالمين، وخزينة رحمته للمؤمنين، وحوض مائه للواردين، وكلمة الله منه، وكلمة الله إليه، وكلمة الله فيه، وكلمة الله لأمته، عنها يصدون ولها يخاصمون أو يصالحون، فيها يكسبون أو معها له يتابعون، فبها يتخلصون، تتكاثر فيتكاثرون، وتنتشر فينتشرون، فلها منه يُعنوِنُون، وبها معه يُعنوَنُون.

فما عرفه الناس لأنفسهم، وما طرقوه بابا لمدينة العلم لمعلمهم، وما قرأوه كتابا لدينهم، وما شهدوه وجها لربه وربهم، وما امتدت إليه أيديهم - يدَ الله - لنجدتهم يُبايعون، أو لخلاصهم من أرض تواجدهم طريقا لله بها يتمسكون، أو عبدا لله وخادما للناس يتابعون.

حكموا عليه بهوى أنفسهم لأنفسهم - ولا يزالون - لا بما هو عليه، ولا بهواه مما سمعوا ويسمعون، فما تفتحت آذانهم لما يقرعها مما يدركون، رأوه بعيونهم وما تفتحت بصائر أبصارهم لما يشهدون، ولو شهدوه لطلبوه، ولو طلبوه لسعدوه، وكانوه، فهل اعتقدوه وتابعوه فلم يحيوه؟! إنه حوض الحياة ما وردوه، وماء السقي ما تعرضوه، وروح أرواحهم ما استحيوه، ودوام رسولهم ما عرفوه، ووجه ربهم ما شهدوه، ورجاء أنفسهم ما حققوه، ودوام الحياة لهم ما رجوه وما أمَّلوه، وأمر الله بينهم ما أطاعوه، ونداؤه الصارخ ما لبوه.. إنه الطريق ما سلكوه.. إنه الليل لقلق أنفسهم ما سكنوه.. وإنه النور لعقولهم ما استضاؤوه.. وإنه الحرية لأرواحهم ما استنجدوه.. وإنه إنسان كل شيء الذي تحدثوه وما طلبوه.. إنه ذو قرنيها ما حذروه.. إنه خادمها في الحياة الأولى، وحاكمها في الثانية ما تأملوه وما عبروه.. النظرة الأولى له بها يعلم ومنها يستعلم وبفيضها يُعلِّم ويتكلم، والنظرة الثانية عليه بها يُعلَّم، ومنها يعلو ويحكم، وإليه ينظر وله يسلم.

كيف هو؟ وكيف كان؟ وكيف صار؟ وإلامَ وصل؟ إن فيه أمر رسول الله للدنيا، وأمر رسول لله للآخرة، وأمر الرسول في نفسه لنفسه، به يعرف الرسول وبه يحتجب الرسول. إن له أن يعذب وإن له أن يتخذ في الناس حسنا. أما من آمن فله جزاء الحسنى. وأما من كفر فيعذبه، يضرب بينه وبينه بسور ظاهره من قبله العذاب وباطنه من قبله الرحمة.. يعذبه حتى يفيء إلى أمر الله.. يعذبه

وقد عصى والعصا لمن عصى، والعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة.. إنه لا يعذب الأحرار.. إنه لا يعذب الذين آمنوا بالله ورسوله وسلكوا السبيل، بل يجزيهم جزاء الحسنى ولهم من الله ما له إخوان على سرر متقابلين. إنه توريث الأرض لربها وللصالحين من عباده فالأئمة من ذريته. إنه فارس الأولى وفارس الآخرة.

أما العبيد الذين لا تصلحهم إلا العصا فيعذبهم عذاب السيد الشفوق.. عذاب الرحمن الرحيم، عذاب المشفق.. عذاب الأبوة يوم تعذب، عذاب الأمومة يوم تغضب.. فمن أفاء، فعفا الله عما سلف، وأصلح له بيد الرحمة ما من نفسه أتلف.

فإن لم يصلح فيرد إلى ربه.. يرد إلى ما ربب على نفسه من دنيا عمله.. يرد إلى ما ربب على نفسه من مال أحب.. يرد إلى ما ربب على نفسه من جاه طلب.. يرد إلى ما ربب على نفسه من طاغية سالم أو له أسلم.. يرد إلى ما ربب على نفسه من ظلام استراح له أو جهل اطمأن به فيعذبه ربه هذا العذاب الأكبر.. يرد إليه عمله.. يحيط به عمله.. يتحكم فيه عمله، وهذا هو العذاب الأكبر، وهو العذاب المنكر، العذاب الذي لا يدركه الإنسان ولا يريد أن يدركه في دنياه.

إن الله يداول الأيام بين الناس.. النظرة الأولى لهم، والنظرة الثانية عليهم.. ليس هذا أمرا يخص عليا دون الناس، ولكن الرسول وهو يعرِّف عن المسلم ما يكون، عرَّف عن مسلم بين الناس كان - أسلم فَسَلِم، وسلَّم فعلم، وعَلم فأُكرم، وأُكرِم فكَرُم. عليه الحق أُنزل، فصار حقا، فبالحق إلى الناس نزل.

بالحق أنزل الله قديم محمد لآدم آدما على صورته، فكان محدث محمد صورة له، فكان بمحدثه.. كان بجلدته صورة قديمة من الحق لآدم بعثا له. وطلب إلى الناس أن يؤمنوا بما أنزل على محمد كشف عنه غطاؤه - وهو الحق من ربهم - فإن فعلوا متابعين كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم لأنه سوف يقع لهم ما وقع له. وقد أُخبروا وبُشروا وأُعلموا ليعلموا أنه بالحق أُنزل، وبالحق نزل، وبالحق ينزل. وهكذا هم إن كسبوا الحياة، وهذا هو الحق من ربهم يتم لهم ما قام وتم لمحمد إن آمنوه ليكونوه منه ربهم من ربهم.

بالحق أنزله في قديمه الأزلي على آدم بدئه الأبدي، في نظام الله السرمدي. بالحق ينزله.. وقد سوَّاه، إذ نفخ فيه من روحه، فأصبح لا قديم ولا جديد. أصبح لا خلق ولا خالق. أصبح لا عبد ولا معبود يوم فعل، فأنزل بالحق على بدء حياتكم، وإنسان نشأتكم، وآدم تواجدكم. كلكم إليه خلقا وكلكم

إليه حقا. بذلك صار الخلق حقا في قديم ولم يصبح الحق المحدث في حاجة لعون لمن ينزله وقد صار في مكنته أن ينزل فنزل رحمة منه وحنينا لمن كان بينهم بخلقيته يوما.

{وبالحق أنزلناه}[٢] والمتكلم غيب المتحدث عنه {وبالحق نزل}[٣] والمخاطب عين المتكلم عنه.

عرف عَلِيٌّ ذلك في محمد بعد متابعته ومصاحبته فأسلم ما ندم، ما طلب دنيا طلبها الناس معه وما طلب آخرة عمل لها الناس في مصاحبته، ولكن طلب أن يكون رباطه بمحمد دائما لا ينفصم، وصلته بمحمد قائمة لا تنقطع، وحبه لمحمد مشبوبا بين جوانحه لا يفتر، ونظره على محمد مستقيما لا يتلفت يمنى ولا يسرى، لا ينقطع عن متابعته ولا يغمض عن مصاحبته، وهكذا يريده في دوام لا يتوقف أبدا. ترك الدنيا والآخرة خلفه، وتابع محمدا إلى ما يسير إليه، لم يوقف الموت متابعته، فلم يعرفه في حق محمد فكان هذا له في حق نفسه. كان محمدا هواه وكان له كل الحياة، وكان له أمله ومغناه. فنى فيه فناء لم ينقطع مرتقاه، وبقي به بقاء لم يتوقف مغناه. عرفه لا إله إلا الله، عرفه وحدانية الله فكان في مرتقاه أنه لهذه الدحية من دحى الله في ملك الله ذو قرنيها، ولكل كوكب حاكمه وإنسانه في قانون الله. وكان لأبناء رسول الله أباهم وآدمهم في أوادم معناهم ما انتسبوا إليه بالروح أو الجسد. وكان للناس طريقهم وحوضهم وسيدهم ما شرفوا بسيادته، وخادمهم ومعناهم ما شرفوا بوحدانية أحدية عبوديته.

تخلى ويتخلى به رسول الله عن النشاط في هذه الأرض ومن فيها وما فيها مخلفا له بحقه حقا منه عليها، مواصلا رسالته في عوالم الظلام والنور، للأبيض والأحمر والأسود، من الإنس والجن والملك.. يعلم الملائكة حتى لا يعترضوا على ربهم، ويعلم الجن حتى يمتثلوا لإرادة سيدهم، ويعلم الإنس حتى يؤمنوا بأبيهم، عبدا لله وربا لهم.. في الدنيا والآخرة يرعاهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويغفر لهم خطاياهم، فهم له من عين معناه، وأنه لهم بعين معناهم. فهم أبناء لآدم، وكلهم آدم. إنهم آباء وأبناء بجمعهم يتابعون حقا لحق رسول الله وخلقا لخلق رسول الله، وكلهم في حقيقة أمرهم من رسول الله. إنهم عباد لله، وأرباب عوالمهم بالله، خلف قائد ركب عوالمهم وسيد العالمين.

كل هذا جاءت به رسالة محمد، فغنى بها من غنى، وسعِد بها من سعد، ونجا بها من نجا، وأسلم لها من أسلم، وها هو كما أنزل بالحق، بالحق ينزل، وكما جاء من الغيب من الغيب يجيء، وكما نبت من الأرض من الأرض ينبت.. يتلاقى بشقيه من الأرض والسماء، في رسالة الروح ووسطاء الروح، ودوائر الروح، ومدرسة الروح، وأمة الروح. يمتد بنوره في المظلمين ويتقلب بإسلامه في الساجدين.

ها هو إنسان الأرض يتخلله إنسان السماء فيصبح خليلا للرحمن...

ها هو إنسان السماء، يتعشق إنسان الأرض، فيصطفي لنفسه، فيُحب ويُحَب.. ها هو إنسان الأرض حبيب إنسان السماء، ها هو الإنسان حبيب الإنسان. ها هو الإنسان خليل الإنسان، ها هو الإنسان رفيق الإنسان، ها هو الإنسان عبد الإنسان، ها هو الإنسان رب الإنسان.

بالرسالة الأولى لكمال الذات وسبقها من الذوات قام البلاغ، وبالرسالة الثانية للروح ومرتقاها في عوالم الروح يقوم البيان. إن الذي أنزل محمدا بالحق أراد أن يعرف باسم محمد حضرة صفاته ونبي الأنبياء وإمام الأنبياء وقدوة الأبناء عبدا ورسولا وجماع المرسلين، هو الذي أمره بأن يتهجد من الليل بمن يتهجد به نافلة له امتدادا للنور الذي أنزل معه، حتى يبعث في الناس بالمقام المحمود، وهو المبعوث فيهم على دوام بالمقام المفروض، {إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد}[٤].

أنكر الناس عليه ما به من الحق ووقفوا عند ما به من الخلق، فلم يعرفوه محمد مقام. ولا أحمد من أنفسهم في حمد الله قيام. ولم يسلموا له محمود بعث في دائم قيام الخلق في دائم قيام الخالق، ولكن الله الذي أنزله بالحق وصرح له أن ينزل بما فيه من الحق، وجعله يقوم ويتقلب في الساجدين، عرفه وعرفنا أنه راده إلى معاد في دائم دورة هو بها أولية رسالة فهو معاني الأولية للحقائق والآخرية للخلائق في رسالة الله، بل في رسالة الإنسان في الله.. من الإنسان إلى الإنسان.. في دوام لا ينقطع بدورة في الله لآدم يدورها، كلما عمَّ الظلام، وآن إشراق يوم بفجره من السلام في دوام لا ينقطع أبدا وما توقف في قديم أزلا. هذا هو رسول الله وآدم الله وحق الله وعبد الله في سرمدية الله. أما السفور بذلك محمود المقام فأمر من اختيار الرحمة لمن تختار له من عوالم الليل.

هذا سمعناه منا، وهذا عرفناه عنا، وهذا تدارسناه بيننا. ولكن أين هو لنا؟ إن الذي يهمنا ويجب أن نعنى به، والذي يُسعدنا، والذي يجب أن نحقق لأنفسنا، أننا به نعمل وفيه نقوم وإليه نسعى.. وهذا ما ترونه في هذه الأيام وفي هذا العصر من أمر الروح ووصلتها، وأمر النفوس الصالحة واستجابتها. وهذه هي طريق الله، وهذا هو دين الله، لمن آمن بالله ولمن سلك إلى الله مسلك. فنسأل الله أن يقوم نفوسنا لإرادته، وأن يهيئ لنا سبيل الرشاد فيه، وأن يمن علينا بطريق الإيمان، فنسلم لرسول الله قائما، دائما، قديما، باقيا، متجددا، متعددا، متكاثرا، متجمعا، منتشرا. لا إله إلا الله.. محمد رسول الله.

اللهم انصرنا لك على أنفسنا.. اللهم وفقنا وسدد خطانا وخذ بيدنا. اللهم قوم فيك سبيلنا وأصلح أمرنا.. اللهم ولِ أمورنا خيارنا، ولا تولِ أمورنا شرارنا، اللهم انصرنا على أنفسنا حكاما ومحكومين، اللهم قومنا حكاما ومحكومين، اللهم بصرنا حكاما ومحكومين، اللهم وفقنا حكاما ومحكومين، اللهم سدد خطانا حكاما ومحكومين، اللهم تولَنا حكاما ومحكومين، اللهم أحيِ قلوبنا حكاما ومحكومين، اللهم

تولَنا في الصغير والكبير من شأننا حكاما ومحكومين، اللهم أنزل السكينة على قلوبنا والسلم والسلام على أرضنا.

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائك..

أضواء على الطريق

- نَحَّى نفسه عن إنائها وأناها، وأدخلها في النفس الأكبر للرسول من أصلها ومعناها، لتعمل بمعناه لا بمعناها، وتتواجد بأناه متخلصة من أناها، وسلم ذاته مُسلِما لذات الرسول، لتكون صمام قلب لمجالات نفسه يجددها الرسول، فبها يتواجد في دوام تواجده فيه، ويظهر به في دوام ظهوره عبد السجود وعلم الموجود ووجه الشهود.
- (أقبل عليّ تحت السحاب)[٥]. (أنا مدينة العلم وعَليٌّ بابها)[٦]. (من كنت مولاه فعَليٌّ مولاه)[٧] (مالي والدنيا أنا في الدنيا عابر سبيل)[٨]
- . (عليّ مني بمنزلة هارون من موسى وإن كان لا نبي بعدي)[٩].
- (بايعتك على ذلك[١٠] - هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم[١١] في أول الرسالة ولكم ملك العرب والعجم[١٢])[.]
- (أما يرضيك يا علي أن تكون أنت أخي؟)[١٣] - عند الهجرة والمؤاخاة.
- (جعل الله ذرية كل نبي في ظهره وجعل ذريتي في ظهرك يا عَلِيّ)[١٤].
- {وتعيها أذن واعية}[١٥] – (هي أذنك يا علي)[١٦] -.
- {قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا}[١٧] – (يا علي أنت ذو قرنيها)[١٨].

مصادر التوثيق والتحقيق

١ من حديث شريف: " يا علي. إن لك كنزا من الجنة، وإنك ذو قرنيها، فلا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى، وليست لك الآخرة." جاء في حاشية مسند الإمام أحمد بن حنبل. كما جاء بصيغ مختلفة في المكتبة الشيعية.

٢ سورة الإسراء - ١٠٥

٣ سورة الإسراء - ١٠٥

٤ سورة القصص - ٨٥

٥ من حديث عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين كسا عليًّا عِمامةً يُقالُ لها السَّحابُ، فأقبل عليٌّ ذاتَ يومٍ وهي عليه. فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هذا عليٌّ قد أقبل في السَّحابِ". الراوي: محمد الباقر بن علي بن الحسين، المصدر: ذخيرة الحفاظ، وجاء في المكتبة الشيعية بأكثر من صيغة وسند.

٦ حديث شريف: "أنا مدينةُ العلمِ، وعليٌّ بابُها، فمَنْ أرادَ العلمَ فليأتهِ منْ بابهِ". المحدث: السيوطي. المصدر: الجامع الصغير، أخرجه الطبراني، وابن عدي، والحاكم..

٧ حديث شريف، يوم غدير خم، بعد حجة الوداع، حيث أخذ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، بيدِ عليّ رضي الله عنه، فقال ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسِهم قالوا بلى قال ألستُ أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسِه قالوا بلى قال فهذا وليُّ من أنا مولاه اللَّهمَّ والِ من والاهُ اللهمَّ عادِ من عاداهُ. صحيح ابن ماجه، أخرجه ابن ماجه وأحمد.

٨ إشارة إلى الحديث الشريف: "مالي وللدنيا إنما مثلي ومثلُ الدُّنيا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ ثم راحَ وتركها." أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد.

٩ حديث شريف. "أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس بعدي نبي." صحيح مسلم وصحيح البخاري.

١٠ من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، عن علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه فيما سمي "حديث يوم الدار" أو "حديث دعوة العشيرة"، حين جمعهم الرسول وحدّثهم عن رسالته فرفضوا دعوته، ومما قاله: "فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيتي وخليفتي فيكم؟ فقال سيدنا على وهو أحدثهم سنا "أنا يا نبي الله، أكون وزيرك عليه. تفسير الطبري، وشواهد التنزيل، وتفسير البغوي، وتفسير ابن كثير، والطبقات، وتاريخ دمشق، وتفسير الثعلبي.

١١ حديث شريف: "هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا" يعني علياً رضي الله عنه. أخرجه الطبري في تفسيره، وجاء في سيرة ابن هشام، كما أخرجه ابن جرير في "التفسير" وابن عساكر.

١٢ عبارة جاءت في كتب السيرة النبوية المختلفة بتعبيرات متعددة، في إشارة لليوم الذي دعا الرسول صلى الله عليه وسلم قومه للإسلام ومما قاله لهم:" يا بني عبد المطلب إن الله بعثني إلى الخلق كافة، وبعثني إليكم خاصة فقال عزوجل: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ. أنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين في الميزان تملكون بهما العرب والعجم وتنقاد لكم بهما الأمم، وتدخلون بهما الجنة وتنجون بهما من النار: شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله..."، تفسير الطبري، وشواهد التنزيل، وتفسير البغوي، وتفسير ابن كثير، والطبقات، وتاريخ دمشق، وتفسير الثعلبي.

١٣ إشارة للحديث الشريف حين آخى رسول الله عليه الصلاة والسلام بين أصحابه، بعد الهجرة، فقال لسيدنا عليّ: "أنت أخي في الدنيا والآخرة." أخرجه الترمذي، وابن عدي، والحاكم. ويصفه المحدثون بأنه موضوع.

١٤ حديث شريف: "إن الله عز وجل جعل ذرية كل نبي في صلبه وإن الله تعالى جعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب." أخرجه الطبراني، والسيوطي، وغيرهم من المحدثين.

١٥ سورة الحاقة -١٢

١٦ جاء في تفسير الطبري أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ما قرأ آية {وتعيها أذن واعية}، قال للعلي كرم الله وجهه "سألت الله أن يجعلها أذنك."

١٧ سورة الكهف - ٨٦

١٨ من حديث شريف: " يا علي. إن لك كنزا من الجنة، وإنك ذو قرنيها، فلا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى، وليست لك الآخرة." جاء في حاشية مسند الإمام أحمد بن حنبل. كما جاء بصيغ مختلفة في المكتبة الشيعية.